المبحث الثالث

المكان والوصف

الوصف غرض شعري له مكانته في الشعر العربي قديما وحديثا فهو ينقلنا إلى عالم آخر يخلقه لنا الشاعر وينقل ما فيه من دلالات نفسية وفكرية. لذلك كان من شروط الوصف أن يكون((سمحا سهل مخارج الحروف من مواقعها، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة)) (١) وعنه يقول ابن رشيق الشعر ((ألا أقله راجع إلى باب الوصف)) (٢) ولقد حبا الله الأندلس بطبيعة خلابة ((وقد كان من أثر جمال الأندلس أن شغفت بها القلوب، وهامت بها النفوس فتعلق بها الأندلسيون جميعا وأقبلوا يسرحون النظر في خمائلها ويستمتعون بمفاتنها ما شاء لهم الاستمتاع)) (٣). كيف لا وقد قال عنها الرازي ((كريمة البقعة بطبع الخلفة طيبة التربة، مخصبة القاعة، منبعة العيون الثراء، متفجرة بالأنهار الغزار... معتدلة الهواء أكثر الأزمان لا يزيد قيضها زيادة مفكرة تضر بالأبدان، وكذا سائر فصولها في أعم سنيها تأتي على قدر من الاعتدال وتوسط في الحال)) (٤) ولهذا جاء وصفهم تعبيرا عن استجابة هذه النفوس الشاعرة لرغبتها في التمتع بجمال الطبيعة أو الاستجابة لتأثير مظاهر الجمال. وقد أضفت الحضارة الجديدة الوافدة على البلاد ((من الرقي ما جعل سكانها يحافظون على روح الجمال الطبيعي في بلدهم وينمونه ويزيدون فيه فأصبحت الأندلس أغنية عذبة في فم الشاعر ينشدها وهو بين ظهرانيها وأنشودة ساحرة على لسانه يرددها وهو مغترب عنها)) (٥)، فقيل فيها أجمل الأوصاف، وراح الشعراء

(١) نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر (٣٧٧ هـ)، تح: د. كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٧٨م، ١١٨-١١٩.
(٢) العمدة، ٢٩٤/٢.
(٣) الطبيعة في الشعر الأندلسي، د. جودة الركابي، مط جامعة دمشق، ١٩٥٩م، ١٤.
(٤) نفح الطيب، ١٤٠/١.
(٥) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٧٥م، ٢٣.

يرسمون بالكلمات ما رأت عيونهم من جمال، لذلك المكان حتى فاض نتاجهم في هذا المجال، وظلت الأندلس مكانا معطاء أمد الشعراء بأجمل الأوصاف وصاغوا من الألفاظ لآلئ تليق به.

فالشاعر يريد أن يخلق من خلال الوصف صلة بينه وبين المكان وقد يصبح صورة لأمانيه وتطلعاته أو قد يصبح علامة دالة على واقعه المعاش ووضعه اليومي ((ومن المعروف أن لكل مكان أفعاله الخاصة، ولكل فعل سمات مكانية خاصة)) (١). فسيطر على مخيلة الشعراء وما عاد يمكنهم التخلص من أسره المحبب وهذا مما لا شك فيه، لأن ((الشاعر ذواق ذو إحساس مرهف تنطبع على قريحته الصافية وفي عقله الخصيب الصور الفاتنة والمرائي النابضة بالحياة)) (٢).

ويمكن لنا أن نلج إلى هذا المبحث من خلال مكانين هما:

أولا: وصف المكان الطبيعي.

ثانيا: وصف المكان الحضري.

أولا: المكان الطبيعي.

وهو المكان الذي يستمد جماله من الطبيعة والذي قليلا ما يكون للإنسان دور في إضفاء هذا الجمال وأولى تلك الأماكن التي جذبت أنظار الشعراء وفتحت قرائحهم هي الأنهار، فقد أكثروا فيها الوصف متأملين ما فيها من جمال وصفاء. وأول من يطالعنا في وصفه للأنهار هو محمد بن الحسين الطارئ (٣) (٣٩٤ هـ) حيث يقول:

وكأن مجرى الماء بين سطوحه مجرى مياه الوصل في كبد الصدي

---

(١) دلالة المكان في قصص الأطفال ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٥م، ٦.

(٢) في الأدب الأندلسي، ٦٨.

(٣) محمد بن الحسين الطبني الطارئ لقب بالطارئ، لأنه طرأ على قرطبة من طينة وهي مركز منطقة الزاب بالعدوة ولد سنة (٣٠٠هـ) ودخل الأندلس سنة (٣٢٥هـ) واتصل بالحكم المستنصر في حكم أبيه الناصر وكان شاعرا مكثرا وأديبا توفي سنة (٣٩٤ هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ٤٤٧؛ تاريخ علماء الأندلس، ٤٠٩/٢؛ البغية، ٩٥/١؛ المغرب، ٢٠١/١؛ الصلة، ٨٦١/٣.

فـي مثـل إصـراح الزجـاج مـرخم ومسطح يحكي إحمرار المجسد [١]

فهو يشبه جريان الماء في النهر كوصل الحبيب للمحبوب بعد طول هجر. ويصف هذا النهر مرة أخرى وصفا بديعا فهو مكسو بالفضة وإذا استقام رأيت عليه رونق وإذا استدار فهو كسوار حول معصم ولنستمع لقوله:

والنهـر مكسـو غلالـه فضـة فـإذا جـرى سـيل فثـوب نضـار
وإذا اسـتقام رأيـت رونـق متصـل وإذا استدار رأيت عطف سوار [٢]

و هذا أسلوب كثيرا ما لجأ إليه شعراء الأندلس قبل الطارئ ((لأن التشكيل المكـاني فـي القصـيدة كالتشـكيل الزمـاني معنـاه إخضـاع الطبيعـة لحركـة الـنفس وحاجاتها)) [٣] فهذا ابن هذيل القرطبي (٣٨٩ هـ) يصف لنا أرضا عاطرة النواحي حيث يقول:

والأرض عـاطرة النـواحي غضـة خضـراء فـي ثـوب أغـر جديـد
والمـاء تدفعـه إليـك متاعـب شـتى مـن الميثـاء والجلمـود
صـاف علـى صـفة المهـا ومذاقـه شـهد فخـذ مـن طيـب وبـرود
مـلأ الـتلاع فأقبلـت وكأنهـا هجمـات حيـات ذوات حقـود
تنخـو إلـى حـال الغطـيط وربمـا زأرت فتسـمعها زئيـر أسـود
وتثيـر طافيـة الحصـى فكأنهـا دلـت علـى السـاعات فهـم بليـد [٤]

فهو يصف تلك الرياض العاطرة بخضرتها والماء تدفعه تلك القلعة المتوسطة

(١) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، لأبي عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب (ت:٤٢٠ هـ)، تح: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ٦٣-٦٤.
(٢) المصدر نفسه، ٦٤.
(٣) التفسير النفسي للأدب، ٦٥.
(٤) شعر يحيى بن هذيل القرطبي، ٨٣.

في ذلك المجرى الذي انعكس إيجابيا على جمالية المكان ويشبهه بهجمات حية حاقدة وصوت الماء كزئير الأسد، إنه فنان أبدع وصور.

فأعجب الشاعر الأندلسي بتلك الأماكن ((فهي جنته الفيحاء التي أعجب بها، وشاطره هذه الإعجاب أهل المغرب والمشرق على حد سواء)) [١] ولم يكتف بوصف المشهد الطبيعي الذي يراه وإنما كان يتناول مشاهد الخيال ويشملها برعايته وعنايته. فهذا الشريف الطليق يصف لنا جدولا هو الآخر حيث يقول:

وكأن الماء فيها ثعابين ... لجين تبعث في السواقي
وكأن الحصباء في رونق الماء ... سنا الدر في بياض التراقي [٢]

فهو الآخر يشبه حركة الماء بحركة الثعابين أما قاع ذلك المكان فهو أشبه بجوهر قد شع نوره على نحر غادة بيضاء.

وأورد لنا المقري أبياتا لشاعر مجهول في وصف جدول متغنيا بجمال ذلك المكان وواصفا كل ما فيه حيث يقول:

والجدول الفضي يضحك ماءه ... فكأنه في العين صفح مهند
وإذا تجعد بالنسيم حسبته ... لما تراه مشبها للمبرد
وتناثرت نقط على حافاته ... كالعقد بين مجمع ومبرد
ومذ حرجت للناظرين كأنها ... در نثير في بساط زبرجد [٣]

وقد استعار صاحب النص بعض الصفات الإنسانية وأضفاها على ذلك الجدول تصوير ذلك المكان بشيء يتلاءم مع الذات الإنسانية. فالجدول ضاحك رؤياه تسر الناظرين وإذا داعب سطحه نسيم هواء تجعد سطحه وكأنه مبرد وقد نثر على جوانبه

(١) تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي، علي محمد حمودي، دار الكتاب العربي، مصر، ط١، ١٩٥٧م، ١.
(٢) مع شعراء الأندلس والمتنبي، ٨٠.
(٣) نفح الطيب، ٧٢/٢.

الخضراء قطراته كأنها الدر.

إن علاقة الشاعر بالمكان الطبيعي هي علاقة متجددة عبر الشعر بل وتتحول هذه العلاقة إلى علاقة التحام وانتماء حتى يكاد المكان يمتلك الشاعر امتلاكا روحيا وجسديا بحيث لا يمكن للشاعر التخلص من أسر قيوده ولم يعد المكان وعاء خارجيا يضم جسد الشاعر بل تجاوز هذا الحد وأصبح يتغلغل في شعاب روحه ويلتحم معها [١]. ومن هذا المنطلق وهذه الرؤية يكمن سر العلاقة بين الشاعر والرياض فقد منحه هذا المكان مشاعر جياشة وعواطف صادقة نابعة منه فوجد في جمالها ضالته بل ومأوى لنفسه المضطربة ويطالعنا ابن عبد ربه بقوله:

وروضة عقدت أبدي الربيع بها	نورا بنور وترويجا بترويج
بملقح من سواريها وملقحة	وناتج من غواديها ومنتوج
توشحت بملاة غير ملحمة	من نورها ورداء غير منسوج
فألبست حلل الموشى زهرتها	وجللتها بأنماط الديابيج [٢]

فهو يصف جمال تلك الروضة التي عقدت أيدي الربيع بها فتبرز روح الشاعر المنفتحة في ذلك المكان والممتزجة به مظهرا كل الصفات الجمالية له.

إن السمة الغالبة على مفردات هذا المكان – الرياض – هي التنويع والتكرار وإضفاء صفات الزهو والبهجة والنور عليه وهذا ما وجدناه لدى سليمان بن بطال [٣] (توفي قريبا من ٤٠٠هـ) حيث يقول:

تبدت لنا الأرض مزهوة	علينا بهجة أثوابها
كأن أزاهرها أكؤس	حدتها أنامل شرابها

(١) ينظر: المكان والرؤية الإبداعية، نادية غازي العزاوي، مجلة آفاق عربية، آذار – نيسان، السنة الثالثة والعشرون، ١٩٩٨م، ٤٠.

(٢) ديوان ابن عبد ربه، ٣٧.

(٣) أبو أيوب سليمان بن محمد بن بطال البطليوسي كان فقيها مقدما وشاعرا محسنا توفي قريبا من (٤٠٠هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ٣٤٤/١؛ البغية، ٣٧٩/٢.

كـــان الغصـــون لهـــا أذرع تناولهـــا بعـــض أصـــحابها
وقـد أعجـب النـور فيهـا الـذباب فيهـــزج مـــن فـــرط إعجابهـــا
كـــأن تعانقهـــا فـــي الجنـــوب تعـــانق خـــود وأترابهـــا
كـــأن ترقـــرق أجفانهـــا بكاهـــا لفرقـــة أحبابهـــا [1]

إن هذا النص يكشف لنا عن وضع الشاعر النفسي والحياة والظروف المحيطة به فهو يصف لنا بهجة تلك الرياض وزهوها فيشبه أزهارها بالكؤوس، والغصون أذرع ويشبه ملاقاة الزهر لنسيم الجنوب كتعانق المرأة مع حبيبها وقد بكت لفراقه ولجأ الشاعر إلى الإكثار من أداة التشبيه محاولا إضفاء صفات تليق بتلك الرياض.

ولم يكن الرمادي أقل شأنا في هذا المجال فقد صور لنا جمالية الروض وسقوط المطر عليه فأصبحت وكأنه ثوب وقد نسجت خيوطه وطرزت باللؤلؤ يقول:

بكت السحاب على الرياض فحسنت منهـا غروسـا مـن دمـوع ثكـول
فكأنهـا والطلـل يشـرق فوقهـا وشـيء يحـاك بلؤلـؤ مفصـول [2]

وقد ارتبط شعراء الأندلس بهذا المكان ارتباطا وثيقا وحيويا لما له من ميزة خاصة ونكهة فريدة وجدوها فيه فهذا ابن النظام[3] يقول:

أمـا تـرى المـزن كيـف ينتخـب ودمعـه فـي الريـاض منسـكب
والأرض مسـرورة بزينتهـا ممـا بهـا يسـتخفه الطـرب
قـد لبسـت مـن ثيابهـا حللا وزينتهـا الوشـح والقصـب

(١) البديع في وصف الربيع، للأديب أبي الوليد إسماعيل بن عامر الحميري (توفي قريبا من ٤٤٠هـ)، اعتنى بنشره وجمعه: الأستاذ هنري بيرس، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، المطبعة الاقتصادية، الرباط، ١٩٤٠م، ١٤.
(٢) شعر الرمادي، ١٠٧.
(٣) عبد الملك بن عبد الحكم يعرف بابن النظام من شعراء المنصور بن أبي عامر وكنيته أبو بكر الكاتب. ينظر: جذوة المقتبس، ٤٥٢/٢.

وقـــد بـــدت للبهـــار ألويـــة يغـض مسـكا طلوعهـا عجـب [1]

حيث أعجب هذا الشاعر وتعجب بتلك الرياض فيتساءل عن السحب كيف تسكب دموعها على تلك الرياض فالأرض جادت بزينتها وسرورها وقد لبست من ثيابها حللا وهي ترقص فرحا وطربا مما جادت المزن عليها فنشرت عبير ورودها.

وقريب من هذا الإعجاب ذهب علي بن أبي الحسين[2] في وصفه لتلك الرياض بقوله:

كأنمـــا الـــروض هيفـــا فـــي حلـــة ووشـــاح
تشـــير غمـــزا علينـــا بنـــرجس وإقـــاح
نقـــول مـــن عـــاف وصـــلي فمـــا لـــه مـــن فـــلاح [3]

إنه يضفي عليها بعض الصفات الإنسانية فهي عادة طويلة القوام تشير إلى الشاعر لا بنظرة بل بالنرجس والأقحوان وكأنها تقول له قد خسر كل من لم يواصل هذا الجمال.

إن مهمة الشاعر الوصاف لتلك الرياض لا تعدو أن تكون كمهمة الرسام إذ يعمد في أغلب الأحيان إلى نقل مشاهد ذلك المكان بكل جزئياته محاولا المزج بينها وبين نفسه فهذا عبادة بن ماء السماء [4] (توفي بعد ٤٢٢هـ) يصفها بقوله:

وتمايلـــت أغصـــانها ميـــادة مثـل انميـاد الخـود حـل خمارهـا

(١) جذوة المقتبس، ٤٥٢/٢، وينظر: بغية المتلمس، ٤٩٤/٢.
(٢) علي بن محمد بن أبي الحسن أبو الحسن صاحب كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس توفي بحدود (٤٢٠هـ). ينظر: بغية المتلمس، ٥٤١/٢؛ الصلة، ٦٠١/٢.
(٣) التشبيهات، ٤٧.
(٤) عبادة بن عبد الله الأنصاري من ذرية سعد بن عبادة وقيل له: ابن ماء السماء، لجدهم الأول من فحول شعراء الأندلس ومن المداحين المعروفين أكثر من مدحه للمنصور بن أبي عامر، وقد تكسب بالشعر، وله كتاب في أخبار الأندلس، توفي بعد ٤٢٢ هـ. ينظر: جذوة المقتبس، ٤٦٣/٢؛ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تأليف الفتح بن خاقان الأندلسي، تحقيق: د. هدى شوكت بهنام، دار الغصون، بيروت، ١٦٠.

وتضـوعت ريـح الجنـوب خلالهـا فحكـى لـك المسـك الـذكي بهارهـا
وكـــأن شـــدو ذبابهـــا وغنـــاءه عـزف القيـان تناوحـت أوتارهـا [1]

فتمايـل أغصـانها كتمايـل فتـاة وقـد نـزع عنهـا خمارهـا ولاعـب النسـيم هـذه الأغصان فتضوع أريج الزهور، حتى تحول طنين الذباب إلى غناء القيان وعزفها على الأوتار.

إن المكان مملوء بعدة أشياء يزخر بها العالم الخارجي هذه الأشياء تجسد قوة هائلة يتفاعل معها الإنسان أما عن وظيفة وصف المكان فهي تجسيد جمالية الأشياء فيه [2]. لذلك أقبل الشاعر الأندلسي ((مع ثقافته الشعرية على الطبيعة فتأملها وأمعن التأمل ثم استخرج من المعاني أروعها ونظم من الأخيلة أجملها ولهذا يقرأ الإنسان سلطان الطبيعة على النفس، تأسر البصر بعض أزاهيرها ثم تمنح الحرية للنفس)) [3].

وخلاصة القول أن الشاعر الأندلسي ارتبط بذلك المكان ارتباطا روحيا وملك شغافها واتخذ منها ملجأ وملاذا للذات يسكب فيها الهموم ويأخذ منها راحة النفس إنه مسكن الروح.

ثانيا: وصف المكان الحضري.

هو المكان الذي صنعه الإنسان وأوجده الفكر البشري وهو يدل على مدى الترف المادي والثراء والوضع الاجتماعي والسلطة والسيادة ويمكن إجمال هذا النوع من الأمكنة بالقصور. وقد أسرف أمراء الأندلس في بناء القصور فتطاولوا بالبناء وشيدوا في كل مدينة صرحا حضاريا وأصبحت هذه الأماكن مراكز حضارية من الناحية السياسية والاجتماعية،

(١) التشبيهات، ٤٨.
(٢) ينظر: بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، د. سيزا القاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ١٠٠؛ وينظر: المكان في الشعر العربي قبل الإسلام، ٢٨٩.
(٣) شعر الطبيعة في الأدب العربي، د. سيد نوفل، دار المعارف، ٢٧٣.

فقد أصبحت مراكز جذب واستقطاب للعلماء والأدباء والتجار، وقصدها الناس من كل حدب وصوب، ولعل أكثر من أسرف في بناء تلك القصور هو عبد الرحمن الأوسط، كل هذا الشيء كان من نتائجه إلهاب خيال الشعراء وتفتح قرائحهم، فأعجبتهم تلك الأماكن، فراحوا يصفون ما فيها من جمال وعلو وشموخ، مما شارك بشكل فعلي في نضوج الوصف في تلك الفترة.

إنها منازل الملوك ومظهر من مظاهر الترف وهيبة ملكهم على الأرض، إنها المكان الذي يميز السادة عن غيرهم[١]، والقصر بمعناه الأوسع ((يحمل دلالات كثيرة ويتعدى ذلك إلى مفاهيم أوسع وأشمل فهو الوطن والكيان الذي يحمل الرمز والتاريخ والمطامح))[٢] ولنستمع إلى بديع وصف عباس بن فرناس [٣] لأحد القصور يقول:

حنايا كأمثال الأهلة ركبت ... على عمد تعتد في جوهر البدر
كأن من الياقوت قيست رؤوسها ... على كل مسنون مقبض من السدر
ترى الباسقات الناشرات فروعها ... موائس فيها من مزاولة الوقر
كأن صناعا صاغ بين غصونها ... من الذهب البادي عراجين من تمر
نشت لؤلؤا ثم استحالت زمردا ... يؤول إلى العقيان قبل جني البسر [٤]

فيصف الشاعر أقواس القباب بالأهلة من حيث استدارتها وعلوها، وهذه الأهلة قائمة على أعمدة كأنها من الياقوت، وقد وجد الشاعر فيها شبها بين هذه الأعمدة

(١) ينظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن عبد العزيز البكري، تح: مصطفى السقا، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥م، ٥١٥/٢؛ وينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٢١٢/٢.

(٢) دلالات المكان في تعميق الجو النفسي للشخصية في الفلم السينمائي، نادية فاروق، رسالة ماجستير، كلية الفنون الجميلة، جامعة بغداد، ٢٠٠١م، ٢٦.

(٣) أبو القاسم عباس بن فرناس مولى بني أمية، كان في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن، وكان شاعرا أديبا مشهورا برز في الفلسفة والنجوم، توفي بعد (٢٨٤ هـ). ينظر: الجذوة، ٥٠٢/٢؛ البغية، ٥٦١/٢؛ المغرب، ٣٣٣/١.

(٤) ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، للدكتور صلاح جرار، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع٣٩، السنة الرابعة عشرة، ١٩٩٠م، ١٦٠-١٦١.

وزخارفها بالنخل وقد حملت بأعذاق التمر المختلف ألوانه.

وهذا الحسن بن حسان [١] هو الآخر يفتتن كل الافتتان بروعة هذه القصور ولهذا يقول:

مقاصير تحتج السماء وتدعي ... على الأرض فيها باحتجاج موكد
ومن غرف فيها حنايا كأنها ... مثاني عبير فوق أصداغ خرد

ومن عمد تزهي بماء محاسن ... يصوب عنه كل طرف مصعد
حكت حمرها الياقوت والدر بيضها ... ومن خضرها اشتق اخضرار الزبرجد
يجول السنا فيها مجال الشعاع في ... صفيحة سيف الصقيل المتقلد
أيبات سليمان بصرح ممرد ... وقصرك فيه كل صرح ممرد
عشيق ومعشوق وبهو وزاهر ... إلى كامل في حسنه ومحدد
وعلية تدعى المنيف كأنما ... ذوائبها نيطت بنسر وفرقد
مجالس طالت في السماء وأشرقت ... متى تبد للأبصار تقرب وتبعد
ظلام الدجى فيها نهار كأنما ... تروح وتمسي الشمس فيها وتغتدي
كأن صدى الأنفاس بين صحونها ... أهازيج ترنيم الحمام المغرد [٢]

فقد استطاع هذا الشاعر أن يصف لنا تلك القصور وما امتازت به من روعة هندستها وجمال علوها وشموخ أعمدتها فهي متلألئة تشع بياضا، إنه وصف جمالي لذلك المكان الذي أسهم وبشكل واضح في نضوج هذا الفن الوصفي وتطوره.

(١) هو أبو علي الحسن بن حسان يعرف بالساط، كان شاعرا مقدما مكثرا في أيام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ). ينظر: الجذوة، ٢٩٥/١؛ البغية، ٣٢٣/١.
(٢) التشبيهات، ٧٧-٧٨.

و هذا ابن هذيل يصف لنا مباني الز هراء [١]، ويضفي عليها بعض صفات الكائن الحي محاولا إبراز القيمة الجمالية لذلك المكان فيصف أقواسها بأجنحة الطير ويلجأ إلى استخدام أداة التشبيه كأن بشكل تكراري، محاولا بوساطة هذه الأداة إضفاء تشبيهات جميلة، فالنخيل الباسقات الشامخات إلى العلا شبيهة بالعذارى، أما جني الورد فيها فأشبه بلقاء عشيقين أظهر الخجل، إنه ((يبث الحياة في جماداتها ويستعير عناصر المكان من الطبيعة الإنسانية)) [٢] حيث يقول:

كأن حناياها جناحا مصفق ... إذا ألهبته الشمس أرخاهما نشرا
كأن سواريها شكت فترة الضنى ... فباتت هضيمات الحشا غلا صفرا
كأن الذي زان البياض نحورها ... يعذبها هجرا ويقطعها كبرا
كأن النخيل الباسقات إلى العلا ... عذارى جمال رجلت لمما شقرا
كأن غصون الآسى والريح بينها ... متون نشاوى كلما اضطربت سكرا
كأن جنى الجلنار ووردة ... عشيقان لما استجمعا أظهرا خفرا [٣]

فقد استطاع ابن هذيل في هذه الأبيات أن ينمي ويطور لنا الإحساس المرهف بتلك القصور، ويكشف لنا من خلال هذا الوصف عن جمالية تلك القصور والحق إن كل ما قيل في الز هراء فهو مقلا بشأنها فقد ((كانت الز هراء درة فريدة في قرطبة وكانت قرطبة جوهرة العالم)) [٤].

وإلى هذا الوصف يذهب عبد السلام [٥] واصفا مباني الزاهرة [١] بقوله:

---

(١) الز هراء و هي المدينة التي شيدها عبد الرحمن الناصر غربي قرطبة في سفح جبل سنة (٣٢٥هـ)، وأنفق عليها الأموال الطائلة ووصفها كثير من الشعراء بجمالها وفخامة عمرانها ودقة تصميمها. ينظر: البيان المغرب، ٢٣١/٢؛ المغرب، ١٧٩/١؛ قصر الز هراء في الأندلس، نجله إسماعيل العزي، بغداد، ١٩٧٧م، ٢٨-٣٢.
(٢) شعر يحيى بن هذيل القرطبي، ٦٠.
(٣) المصدر نفسه، ٨٤.
(٤) تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي، ٢١٥.
(٥) عبد السلام: يذهب الدكتور إحسان عباس بأنه على الأرجح هو عبد السلام بن عبد الله بن زياد اللخمي القرطبي أبو عبد الملك (ت:٣٧١هـ)، ينظر: ملحق التشبيهات، ٣١٣.

كأنمـــا الـــوحي يأتيـــه بأرســـمها مـن الجنـان فـلا يعـدو الـذي أمـره
كأنمـــا عمـــد الأبهـــاء إذ بـــرزت سـوق تبـدت مـن الأنـوار منحسـره

كأنمـــا طـــرر الإقيـــاء ماثلـــة غيد لوى الحسن في لباتها طرره [٢]

فالشاعر هنا جنح إلى المبالغة وبشكل ملفت للنظر عندما جعل رسمها من صنع الوحي يأتي به من الجنان وليس من صنع الإنسان محاولا إضفاء أجمل الصفات على هذا المكان ويغلب على هذه الأبيات سهولة الألفاظ ووضوح المعاني.

إن هذا الإغراق في الوصف المكاني ما هو إلا انعكاس للازدهار الثقافي والاقتصادي والاجتماعي الذي شهدته بلاد الأندلس في تلك الفترة، فهو فن أصيل من الفنون التي ابتكرها شعراء الأندلس وطبعوها بأفكارهم [٣].

فقد تطور الذوق العربي بتطور الحياة، وأخذ الناس بأسباب الحضارة، فرقت مشاعرهم، وأخذت أحاسيسهم بالصفاء اتجاه تلك الأمكنة، فليس من العجيب أن يتألق وصف الزهراء والزاهرة في تلك الفترة إذ ((إن العمارة في مباني قرطبة والزاهرة والزهراء اتصلت إلى أن كان يمشي فيها بضوء السرج المتصلة عشرة أميال)) [٤].

ويصف لنا محمد بن الحسين الطارئ قصر البهو مشيدا أيضا بروعة هندسته وجمال أعمدته ولجأ بعض الشيء إلى المبالغة، القصد منها إظهار الفاعلية المعنوية والنفسية للمكان فهو يصف ذلك المكان ويمعن النظر فيه متأملا بكل جوانبه، هذا التأمل يهيئ لهو انفتاح المخيلة الشعرية فلنستمع لقوله:

عقـــدت أهلـــه بهـــوه فكأنهـــا عقـد الشـنوف علـى خـدود الخـرد

---

(١) الزاهرة وهي المدينة التي بناها المنصور ابن أبي عامر بناها سنة (٣٦٨ هـ) وأقامها على نهر قرطبة واستغرق بناؤها عامين وبجانبها المنية العامرية. ينظر: نفح الطيب، ٥٧٨/١.
(٢) التشبيهات، ٦٩.
(٣) ينظر: دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، ٦٥.
(٤) فضائل الأندلس وأهلها، لابن حزم، ابن سعيد الشقندي (ت:٦٢٩ هـ)، نشر: الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٨م، ٥٥.

من تحتها عمد كأن فريدها ... من جوهر ولآلئ وزبرجد
تحكي الحسان قدودها لكنها ... في خلقها ليست بذات تأود
وكأنما قضبانه اللاتي سمت ... تبغي مناجاة النجوم الوقد [1]

هذه الألفاظ التي استمدها الطارئ ليست مصطنعة وإنما هي مستمدة من واقع تلك القصور فيصف أعمدتها وكأنها من جوهر وزبرجد وهذه الأوصاف كثيرا ما لجأ إليها شعراء الأندلس، ويضفي عليه أيضا صفات السمو الشموخ التي قرنها الشاعر بالنجوم العالية الملتهبة بنورها.

فكان لتلك القصور صدى كبير في شاعرية ونفسية المبدع، و هذا الصدى أنتج لنا شعرا يفيض عذوبة وجمالا، فهذا ابن شخيص يصف لنا تلك المباني بأسلوب شعري منمق وجميل حيث يقول:

هذي مباني أمير المؤمنين غدت ... يزري بها آخر الدنيا على الأول
كذا الدراري وجدنا الشمس أعظمها ... قدرا وإن قصرت في العلو عن زحل
لقد جلا مصنع الزهراء عن أثر ... موحد القدر عن مثل وعن مثل
فأتت محاسنها مجهود واصفها ... فالقول كالسكت والإيجار كالخطل
بل فضلها في مباني الأرض أجمعها ... كفضل دولة بانيها على الدول [2]

فقد صور لنا ابن شخيص هذه المباني بأسلوب جميل فقد جعل منها درة فريدة يعيب بها كل ما قام قبلها، ويقرن علو ها بكواكب السماء وحسنها يفوت جهد كل واصف مهما قيل فيها.

ثم يلجأ بعد هذا إلى أسلوب سردي تفصيلي لكل أجزاء ذك المكان المتمثلة بالأقواس والحوض وغيرها حيث يقول:

(١) التشبيهات، ٧١.
(٢) شعر ابن شخيص، ٧٩-٨٠، يزري: يعيب ويحقر ويهون، الخطل: القول الفاسد المضطرب.

كـادت قسـي الحنايـا أن تضـارعها ... أهلـة السـعد لـولا وصـمة الأفـل
تألقـت فقـدا نقصـانها كمـلا ... وربمـا تـنقص الأشـياء بالكمـل
أوفـى سـناها علـى أعلـى مفارقهـا ... مـن لؤلـؤ حاليـات الحلـق بالعطـل
كـم عاشـقين مـن الأطيـار مـا فتئـا ... فيهـا يـرودان مـن روض إلـى غلـل
إذا تهـادى حبـاب الحـوض حتهمـا ... علـى التنقـل مـن نهـل إلـى علـل
كأنمـا أفرغـت ألـواح مرمـره ... من ماء عصراء لم يجمد ولم يسل (١)

فتلك الأقواس كادت تصارع وترتقي إلى أهلة السعد لولا الغروب، فنقصانها كمال لها، حتى الأطيار تعشق ذلك المكان فترده مرة وتحفي نفسها مرة أخرى وكأن ألواح المرمر من ماء صاف مستقر لم يجمد ولم يتحرك فهو ما بين الاثنين.

فأصبح وصف المكان الحضري عنصرا له دلالة خاصة واكتسب قيمة جمالية من خلال كشفه عن حياة الشخصية فهو كما أشرنا في صفحات سابقة انعكاس لشخصية الشاعر الذي عاش وترعرع في تلك الأماكن، فذهب يتغنى بها وبجمالها، ونلمس هذا الأثر في شعره، فوقف متأملا فيها وفي مجالسها ورياضها الزاهية حيث قال:

فيها مجالس مثل الحور قد فرشت ... فيهـا الريـاض ولـم يحلـل بهـا مطـر
إلـى سـطوح تـرى أفريزهـا شـرقا ... مثل المرائي يرى في مائها الصور
كأنمـا خفـرت مـن طـول مـا لحظـت ... فقـد تعـدى إلـى أبهائهـا الخفـر
وقبـة مـا لهـا فـي حسـنها ثمـن ... لـو أنـه فيهـا العـز والعمـر
كأنمـا فرشـت بـالورد متصـلا ... فـي الفـرش فاتخـذت منـه لهـا أزر
كأنمـا ذعـرت مـن خـوف سـقطتها ... فـي بحرهـا فبـدا فـي لونهـا الـذعر

(١) شعر ابن شخيص الأندلسي، ٨٠، العطل: تجرد المرأة من الزينة، الذهل: أول الشرب وثانيها العلل.

بحـــر تفجـــر مـــن ليثـــين ملـــتطم يا من رأى البحر من ليثين ينفجر [1]

في هذه الأبيات يصف لنا الشاعر جمال مجالس تلك القصور ورياحها الزاهية وسطوحها البراقة الشبيهة بالمرآة، حيث يرى الإنسان فيها ذاته، أما قبتها فلا تثمن سوى بالعز، وكأنها مفروشة بالورد، وقد جسدت دلالة السيادة والعز.

إن الوصف الذي نسجه لنا شعراء الأندلس في تلك الحقبة هو ليس من صنع الخيال الوهمي بل هو وصف لحقيقة الواقع فقد عاشوا في تلك الأماكن وعاصروا عزها وشموخها فكان من الجدير بالوفاء أن يصفوا تلك المباني بأجمل الأوصاف. ومن الذين استوقفتهم تلك الأماكن ابن دراج القسطلي (ت:٤٢١ هـ) عندما وصف دار السرور وجعلها فوق النجوم، ووجد طيب الحياة وروحها من أنفاس هوائها أما الأعمدة التي قامت عليها فهي فريدة من نوعها إنها ((من الرخام المجزع المعرق بلونيه الرمادي المائل إلى الزرقة والوردي المجزع بلون أبيض)) [2] أما السرور فقد اتخذ من تلك الأماكن دار الإقامة فلنستمع لقوله:

دار الســـرور المعتلـــي شـــرفاتها فـوق النجـوم الزهـر فـي اسـتعلائها
وكـــأن عـــز المـــزن لمـــا جادهـــا نشـرت عليهـا مـن نفـيس ملائهـا
وكأنمـــا أيـــدي الســـعود تضـــمنت إبـــداعها فبنـــت علـــى أهوائهـــا
وكـــأن ريحـــان الحيـــاة وروحهـــا مستنشـــق مـــن نافحـــات هوائهـــا
فكأنمـــا اصـــطفيت طلاقـــه بشـــرها مـــن أوجـــه الأحبـــاب يـــوم لقائهـــا
قامـت علـى عمـد الرخـام كمثـل مـا نسـقت نجـوم الـنظم فـي جوزائهـا
بمقابـــل مـــن ملتقـــى أرواحهـــا ومشـــاكة مـــن ســـقلها وعلائهـــا
ككتيبتـــي رجـــل وركـــب وافقـــت يـــوم الـــوغى مثلـــين مـــن أكفائهـــا

(١) شعر الرمادي، ٧٠.
(٢) قصر الزهراء في الأندلس، ١٢٧.

وكأنمـــا اختـــار الســـرور مكانهـــا وطنـــا فحـــل مخيمـــا بفنائهـــا [1]

هكذا وجد شعراء الأندلس في تلك الأماكن جمالا وروعة ودقة تصميم وألفة ونعيم، فتعانق معها وأفرغ فيها مشاعر الحب وألهمته شعر التغني وأشعارا تفيض عذوبة وجمالا، صورت جزء من تلك الأماكن الحضرية التي خلد لها التاريخ.

(١) التشبيهات، ٦٧-٦٨.